موجز وقائع الندوة: " إيران.. أية تأثيرات على منطقة شمال إفريقيا والساحل؟ "

8 أبريل 2019

نظم المعهد الملكي للدراسات الاستراتيجية، بشراكة مع المعهد الدولي للدراسات الإيرانية في المملكة العربية السعودية، ندوة حول موضوع التأثيرات الإيرانية في منطقتي شمال إفريقيا والساحل، بحضور عدد من الخبراء والباحثين الجامعيين من العالم العربي.

وقد هدف هذا اللقاء، الذي يندرج في إطار اليقظة الاستراتيجية المنوطة بالمعهد الملكي، إلى رصد مدى النفوذ الإيراني في هتين المنطقتين، تحليل مراميه وكشف الاستراتيجيات المتبعة لتوطيده. كما عُنيت الندوة بدراسة سبل التصدي للتهديد الذي يشكله المدّ الإيراني في المنطقة.

الاستراتيجية الإيرانية في العالم العربي

تمتلك إيران العديد من المقومات التي تجعل منها قوة متوسطة ، مثل:

- **موقع جغرافي استراتيجي:** ظلت إيران دوما نقطة مرور وفضاء للعبور. فهي تقع عند تقاطع عدة مجالات جغرافية: الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والقوقاز وشبه القارة الهندية والخليج العربي-الفارسي . بالإضافة إلى ذلك، فإيران تطل على مضيق هرمز أحد أهم المسارات البحرية لنقل المنتوجات النفطية، الذي يشهد مرور حوالي ثلث الإنتاج العالمي للنفط.
- **ثروة ضخمة من المحروقات:** تمتلك إيران ثالث أهم احتياطي عالمي للنفط، ما يخولها لعب دور فعال في منظمة الدول المصدرة للنفط.
- **القوة العسكرية:** تتوفر إيران على فئتين من القوات المسلحة: الجيش النظامي والحرس الثوري (الباسدران) ، و هو منظمة عسكرية غير نظامية ، ذات تمويل ذاتي ، موضوعة تحت الإمرة المباشرة للمرشد الأعلى و تتوفر على قوات بحرية وجوية

وبرية . ويظل الحرس الثوري مصدر إزعاج باعتباره جيش تدفعه أيديولوجيا معينة، ويحركه التعصب.

- **مؤهلات ديمغرافية هامة** : تبلغ ساكنة إيران 82 مليون نسمة، مما يجعل هذا البلد الثالث في المنطقة من حيث عدد السكان. بالإضافة إلى ذلك، تُشكل نسبة الشباب في المجتمع الإيراني و مستوى تكوينهم مؤهلاً أساسياً للدولة الإيرانية التي باشرت تحولها تُجاه اقتصاد المعرفة.
- **الثقل الديني:** أصبحت إيران بعد قيام الثورة الإيرانية سنة 1979 معقل الحركة الشيعية . وأعلنت نفسها حامية للأقليات الشيعية في جميع أنحاء العالم والمسؤولة عنهم. ويلعب المرشد الأعلى على رأس هرم النظام السياسي للدولة الإيرانية دورًا مهمًا في ترسيخ الموقف الديني الإيراني بين السكان الشيعة في العالم.

تمنح هذه المؤهلات إيران وزنا خاصا في الساحة الدولية تستطيع به توسيع نفوذها، مستعينة في ذلك بالعلاقات التي تربطها بالأقليات الشِّيعية في شتَّى الأقطار العربية. هكذا، عبْر تمويل عدد من الفصائل الإقليمية، كحزب الله اللبناني والحوثيين في اليمن وحركة المقاومة الإسلامية حماس، و إمدادها بالعتاد و المشورة، تُغذِّي إيران قدرتها على زعزعة استقرار الدول المجاورة لها.

ويلعب حزب الله دورا محوريا في هذا النسق. فقد مكَّن إيران، عبر مشاركته في الأزمة السورية، و في سياق وصول الشيعة إلى الحكم في العراق، من استكمال بناء القوس الشيعي. إضافة إلى ذلك، نجح حزب الله، عبر دوره في القضية الفلسطينية، في نيل تعاطف المجتمعات العربية والإسلامية.

لقد حاولت إيران تصدير نموذجها الثوري، واعتمدت خطابًا مُعاديا تُجاه عدة دول في العالم العربي والإسلامي. وتتمثل الاستراتيجية الإيرانية في الجمع بين منطقين سياسي وهوياتي، هما: "جبهة الرفض"، شيعة أوسنة، تستهدف إسرائيل والولايات المتحدة والغرب عمومًا، و"المحور الشيعي" الذي يدافع عن مطالب المساواة بالنسبة للأقليات الشيعية المضطهدة.

علاوة على ذلك، تعزز الموقف الإيراني في العالم العربي والإسلامي خلال السنوات الماضية بفضل عدة عوامل، وهي:

- غزو الولايات المتحدة للعراق في سنة 2003 و الإطاحة بنظام الرئيس السابق صدام حسين ، الذي كان يشكل أكبر تهديد لإيران.

- تراجع النظام الإقليمي العربي:. تستفيد إيران من العديدة و الخلافات العديدة بين الدول العربية.

- سياسة المهادنة التي سلكها نهَجها الرئيس الأمريكي باراك أوباما تجاه إيران رغم معارضة الحليف التاريخي للولايات المتحدة : المملكة العربية السعودية.
- اندلاع أحداث "الربيع العربي" التي كان من بين عواقبها تفكك العديد من الدول.

في هذا السياق، يمكن اختزال أهداف إيران في الرغبة في توطيد نفوذها في محيطها القريب والبعيد. فمن العراق إلى المغرب، تنهج طهران خطة استراتيجية تعتمد على النشاط الشيعي والتدخل في النزاعات الداخلية والخارجية مع التسابق نحو عقد التحالفات قصد التخفيف من العزلة الدولية الناتجة عن العقوبات الدبلوماسية و الاقتصادية المفروضة عليها.

وقد دفع هذا الوضع بطهران إلى تنويع وتعزيز توجهات دبلوماسيتها، لا سيما نحو بلدان شمال إفريقيا والساحل.

تحظى هذه المنطقة باهتمام كبير لدى السلطات الإيرانية، و ذلك بفعل عاملين اثنين : أولُهما هيمنة الغرب على هذه المنطقة على المستوى السياسي و الاقتصادي و الثقافي و فشل دولها في تحقيق النمو و الأمن ممَّا فتح المجال للعامل الثاني، و هو الاهتمام المتزايد لدول الخليج بهذه المنطقة بصفتها دولا مانحة.

إيران ودول شمال إفريقيا والساحل

تشكل سياسة إيران الخارجية تجاه شمال إفريقيا والساحل امتدادا لسياستها المتبعة في الشرق الأوسط ومنطقة الخليج العربي-الفارسي .فهدفها هو تصدير الثورة وتوسيع النفوذ الإيراني.

إنها سياسة مبنية على منطق ثوري ولها ارتباط بطبيعة النظام الإيراني الذي يستند في شرعيته على العقيدة الشيعية ل"ولاية الفقيه". وبالتالي فالسلطة الزمنية تكون تحت سلطة المرشد الأعلى، أما رئيس الدولة فليس سوى مدبر للشؤون الحكومية.

وقد طبقت إيران هذا التوجه في علاقاتها مع البلدان المغاربية، عبر استغلال واضح لبعض الخلافات التي تحدث بين دول المنطقة خاصة بين المغرب والجزائر: فقضية الصحراء وتعطل مسار التكامل المغاربي، والوضع الصعب السائد في منطقة الساحل ، وانتشار الفقر والآثار السلبية لتغير المناخ وتزايد تدفقات الهجرة، كلها نقط ضَعف استفادت منها إيران.

بالإضافة إلى ذلك، فإن عدم الاستقرار والتهديدات التي يمثلها انتشار الجماعات الإرهابية جعلت هذه المنطقة فضاء جديدا للمواجهة والتنافس بين إيران والمملكة العربية السعودية، حيث يحاول كل طرف توسيع نفوذه على حساب الآخر.

والملاحظ أن علاقات إيران مع البلدان المغاربية متباينة ولا تخضع لنفس المقاربة.

إيران والمغرب

أخذت العلاقات بين المغرب وإيران في التدهور منذ قيام الثورة الإسلامية سنة 1979، ثم ظلت بعد ذلك تتأرجح بين القطيعة والتقارب، لتصل حدَّ القطيعة سنة 1980 نتيجة إعلان طهران اعترافها بما يسمى ب"الجمهورية الصحراوية " المزعومة".

ظلَّت العلاقات بين البلدين مقطوعة إلى غاية سنة 1991، حيث استؤنفت و بعد عامين تم رفع التمثيل الدبلوماسي في العاصمتين إلى مستوى السفراء . وفي سنة 2009 أعلنت الرباط ، من جديد، قطع علاقاتها مع إيران تضامنا مع دولة البحرين التي كانت في نزاع مع طهران آنذاك.

واستؤنفت العلاقات بين البلدين في سنة 2014 مع تعيين طهران قائما بالأعمال ثم سفيرا في الرباط. في المقابل عين المغرب سفيرا له في طهران سنة 2016.

وبعد سنتين فقط قامت السلطات المغربية للمرة الثالثة بقطع علاقاتها مع إيران في ماي 2018، بسبب الدعم المقدم من جانب طهران لجبهة "البوليساريو". فوفقًا لوزارة الخارجية والتعاون الدولي المغربية، تتوفر الرباط على أدلة دامغة حول تسهيل إيران عبر حزب الله تسليم أسلحة إلى جبهة "البوليساريو".

توفرت لدى المملكة المغربية بيانات دقيقة تُثبت الدعم السياسي والإعلامي والعسكري الذي يقدمه حزب الله لـ "البوليساريو" بالتواطؤ مع إيران. وقد أخذت السلطات المغربية الوقت الكافي لدراسة كل هذه العناصر دراسة شاملة قبل اتخاذ قرارها بكل مسؤولية.

لقد عزز تدخل إيران في قضية الصحراء المغربية الاتهامات باتباع إيران لاستراتيجية هدفها الهيمنة على مستوى الفضاء المغاربي.

أما فيما يتعلق بالنشاط الديني الإيراني في إفريقيا، فإن المغرب وفي إطار التزامه بالأمن الروحي للقارة يدين بشدة التبشير الشيعي. ولمواجهة هذا الخطر يقدم مساهمات مهمة من خلال:

- انتهاج اسلوب الدبلوماسية الروحية ،

- التأطير الذي تُقدمه المملكة عبر معهد محمد السادس لتكوين الأئمة و المرشدين و المرشدات المشجع للإسلام السني و قيم الانفتاح والتعايش
- إنشاء مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة كإطار للتعاون بين علماء المغرب وعلماء البلدان الإفريقية.

إيران والجزائر

شهدت العلاقات الإيرانية الجزائرية العديد من التحولات، وظلت على العموم غير مستقرة

خلال السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، ربطت بين الدولتين علاقات ودية ساهت في توطيدها الوساطات الناجحة التي قامت بها الجزائر، و على وجه الخصوص:

•يوم 6 مارس 1975 ، تم ، في الجزائر العاصمة ، توقيع اتفاقية سلام بين إيران والعراق ، وضعت حداً لنزاع طويل بين البلدين حول مسألة السيادة على شط العرب. وقد أنهت الوساطة الجزائرية هذا النزاع الخلاف القديم ممَّا سمَح بتطبيع العلاقات بين البلدين إلى غاية شتنبر 1980 ، عندما أعلن العراق الحرب على إيران.

و قد حاولت الجزائر لعب دور الوساطة في هذا الصراع، غير أنَّ إسقاط الطائرة التي كانت تُقِل وزير خارجِيَتها، محمَّد الصديق بن يحيى، عند مدخل المجال الإيراني، يوم 3 ماي 1982، حال دون تمام هذه المساعي. ففي 21 يناير 1981 لعبت الجزائر دورًا مهمًا في إطلاق سراح 52 من الرهائن الأمريكيين المحتجزين لمدة 444 يومًا في طهران.

و قد حدثت القطيعة الأولى بين الدولتين سنة 1993، حين اتهمت الجزائر إيران بدعم الإسلاميين إبَّان العشرية السوداء. ولم يخف الزعماء الإيرانيون أبدًا تعاطفهم مع الإسلاميين، بل كانوا يرغبون في قيام "جمهورية إسلامية" في الجزائر.

و بالرغم من أنَّ الدعم المُقدَّم للإسلاميين الجزائريين من لدُن إيران كان متواضعا، اتجهت العلاقات بين البلدين نحو القطيعة. ولم يغير انتخاب بوتفليقة من هذا الوضع ، حيث انتقدت إيران التزوير الهائل الذي مس الاقتراع .

و بعد 7 سنوات من القطيعة، ساهم انتخاب الرئيس الإيراني الجديد والمعتدل محمد خاتمي و تنازله عن خطاب تصدير الثورة في تطبيع العلاقات بين البلدين، خاصة وأنهما يدافعان معا عن مواقف مشتركة داخل منظمة أوبك. و قد تزامن هذا مع تراجع شعبية الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، مما دفع هذا الأخير إلى السعي لتدارك الوضع بتحقيق نجاح ديبلوماسي، عبر استئناف العلاقات مع إيران.

ومع ذلك ، فإن النشاط الديني الإيراني من خلال ممثليه الدبلوماسيين قد قاد السلطات الجزائرية إلى الاستمرار في حالة عدم الثقة في الممارسات الإيرانية.

إيران وتونس

على منوال المغرب ، لم تواجه تونس تهديدات من إيران إلا بعد تغيير النظام في طهران سنة 1979.

كان التدخل الإيراني في الشؤون الداخلية التونسية جزءًا من سياسة طهران الخارجية بدعوى دعم الشعوب الواقعة تحت "سيطرة أنظمة حكم طاغية" . فكان دعم الحركة الإسلامية وقيام الاحتجاجات الشعبية ضد إيران سنة 1986 من الأسباب التي قادت تونس لقطع علاقاتها الدبلوماسية مع طهران بين سنتي 1987 و 1990.

وخلال الحركات الاحتجاجية في ظل الربيع العربي دعمت إيران التغيير في تونس ، على الرغم من استفادتها من بعض الامتيازات من طرف النظام السابق، من قبيل الترخيص في سنة 2006 بإنشاء جمعية ثقافية شيعية "أهل البيت " تجمع الشيعة التونسيين ودعم قناة المنار التلفزيونية.

إيران وليبيا

تزايد التغلغل الإيراني في ليبيا في أعقاب سقوط نظام القذافي وانهيار الدولة . فشجعت طهران على إنشاء عناصر نشطة للحرس الثوري في عدة أجزاء من ليبيا. واستفادت كثيرا من حالة الفوضى التي تعيشها البلاد في إضعاف أسس الدولة الليبية.

فبالإضافة إلى تقديم المساعدات الإنسانية، تمارس إيران نفوذها لدى رؤساء القبائل الليبية لحشد الدعم للزعماء الإسلاميين و دفعهم للوصول إلى قيادة البلاد . هكذا تُوَسِّع إيران نفوذها في بلد منهار، مما قد يسمح لها من اتخاذ ليبيا منطلقا لإضعاف اقتصاد وهياكل الدول المجاورة.

إيران ودول الساحل

تشمل نوايا إيران التوسعية أيضًا بلدان الساحل. فقد عرفت العلاقات الدبلوماسية بين إيران ودول الساحل نقطة تحول هامة في التسعينيات، خاصة مع تطبيق العقوبات ضد طهران. ويساهم وجود جالية لبنانية شيعية كبيرة موالية لإيران بغرب إفريقيا في تعزيز النفوذ الإيراني على الساحة السياسية الإفريقية.

ومن أجل الحفاظ على حضورها في إفريقيا، تقوم إيران أيضًا بالتبشير الشيعي في بلدان الساحل . علاوة على ذلك، منحت الدولة الإيرانية العديد من المنح الدراسية لمواطني هذه الدول للدراسة في مدينة قم لجعلهم وعاظا ومرشدين للعقيدة الشيعية عند عودتهم إلى بلدانهم الأصلية .

لكن إيران فشلت في تحقيق أيٍّ من أهدافها بمنطقة الساحل وشمال إفريقيا بسبب علاقات طهران المتذبذبة مع دُوَلها.

أهم الاستنتاجات الرئيسية للندوة

تم تلخيصها في النقاط التالية:

- تظل المسألة الإيرانية معقدة وحساسة للغاية: ومن هنا تأتي أهمية توضيح المفاهيم المستعملة.
- مرت العلاقات الثنائية بين إيران والبلدان المغاربية بمراحل من القطيعة ، لكن هذه الأخيرة لم تتميز بالاستمرارية.
- ستواصل إيران سياستها "التوسعية" طالما استمرت حالة عدم الاستقرار والضعف في بعض الدول، و ستستفيد في ذلك من الخلافات بين البلدان المغاربية والتدخلات الخارجية.
- ترى إيران في البلدان المغاربية بوابة لدخول إفريقيا ، حيث تسعى لفرض وجودها بالقارة على غرار القوى الكبرى والناشئة.
- تعتبر إيران أن حالة عدم الاستقرار في منطقة الساحل والصحراء تخدم صالحها، وبالتالي تقوم بتدعيم أي إجراء من شأنه الحد من نفوذ الدول العربية والغربية التي قامت بالعديد من المبادرات الهادفة لمحاربة مختلف التيارات "الجهادية".
- ستظل المقاربة الإيرانية قائمًة على البعد الديني ، لكنها ستبقى رهينة بردود فعل دول المنطقة و بصعوبة نشر التشيع في مجتمعات ذات تقاليد سنية.
- من غير المرجح أن يكون لانسحاب الولايات المتحدة من الاتفاق النووي الإيراني لسنة 2015 تأثيرات سلبية كبيرة على السياسة الأفريقية لإيران. ومن المستبعد أن يتم التخلي على المكتسبات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية لطهران في القارة نتيجة لهذا الاتفاق.
- من ناحية أخرى ، أظهرت الاستراتيجية الإيرانية محدوديتها بالنظر إلى التأثير الضعيف للحركة الشيعية في السكان المسلمين ، خاصة في المغرب بسبب الحضور القوي للمذهب المالكي والدور الريادي لمؤسسة إمارة المؤمنين .
- ليس العامل الديني هو المهم (فإيران لا تحتكر المذهب الشيعي). فما يثير القلق هو الاستغلال السياسي للعقيدة الشيعية.
- لا يجب فصل المنطقة المغاربية عن بلدان الساحل فيما يتعلق بالتأثير الإيراني.

توصيات لمواجهة التهديدات الإيرانية

- ينبغي لدول الخليج والبلدان المغاربية أن تتبنى موقفًا مشتركًا في مواجهة التهديد الشيعي الإيراني.
- يجب تعزيز العلاقات الاقتصادية بين دول الخليج والدول المغاربية من أجل حماية السكان من التهديدات الخارجية.
- بالنظر إلى إمكانات كل من إيران وبلدان شمال إفريقيا والساحل والصحراء ، يمكن للتعاون الاقتصادي أن يساهم في تطبيع العلاقات بين طهران ودول هذه المنطقة.
- ينبغي على البلدان المغاربية ودول الساحل العمل سويا على تطوير التكامل الاقتصادي بينها للقضاء على فرص التغلغل الإيراني في شؤونها.
- من شأن تحول موقف القيادة الإيرانية نحو براغماتية واقعية والتخلي عن استغلال العامل الديني ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لدول المنطقة ، أن يمنح نفسا جديدا لتعاون إيران مع البلدان المغاربية وبلدان الساحل.